مدرسة الإسكندرية

النموذج الرهباني في مصر

الحياة الرهبانية في نهاية القرن الرابع الميلادي (٢)

بشارة طرابلسي

إن لم تؤمنوا فلن تفهموا

العدد الرابع - ٢٠١٠

مجلة مدرسة الإسكندرية

عدد ٤

الحياة الرهبانية في نهاية القرن الرابع الميلادي بمصر (٢)
النموذج الرهباني في مصر

ترجمة: بشارة طرابلسي

الحياة الرهبانية في نهاية القرن الرابع الميلادي بمصر (٢)

النموذج الرهباني في مصر[١]

ترجمة بشارة طرابلسي
beshara_tarabolsy@alexandriaschool.org

مقدّمة[٢]

لقد كانت جماعة السبعة [الزائرين][٣] توّاقة للتعلم وحادة الملاحظة، ولم يكن الجانب الاجتماعي في الرهبنة هو ما أثار اهتمامها؛ بل بالحري الحياة الرهبانية نفسها. لقد رأت كل ما أمكن رؤيته في حياة الرهبان المصريين، وبشيء من البساطة سجلته. إن الانطباع الإجمالي [الذي نخرج به] من تقريرها[٤] [يقدم] أنماطًا حياتية متنوعة، تتراوح بين الحبس الكلي بين أسوار الدير [مثل] إيسيذوروس، وحتى الرهبان المتجولين [السواح] مثل يوحنا. من الواضح أنه الجيل الثاني [من الرهبان] في مصر، حيث كانت حيوات الشيوخ العظام قد أصبحت قصصًا تُتناقل، وقد أصبحت الجماعات الديرية مألوفة أكثر من النساك المتجولين، ولكن الإحساس بالتنوع الروحي يظل موجودًا. لقد أتى الزائرون [السبعة] لأنهم كانوا قد قرأوا أو سمعوا عن المصارعين الروحيين في مصر ولقد تأملوهم[٥] لأمسيات طويلة في ديارهم.

---

[1] Norman Russel, *The lives of the Desert Fathers 'The Historia Monachorum in Aegypto'* – Introduction by Benedicta Ward SLG, Cisterican Publications CS34, 1981, pp. 20-28.

[٢] العناوين الجانبية من وضع المترجم.

[٣] بخصوص الأسلوب المتبع في الترجمة، راجع الجزء الأول من هذا المقال في العدد الثالث للسنة الأولى من المجلة.

[٤] تقصد كتاب "تاريخ الرهبان" *Historia Monachorum* (المترجم).

[٥] حرفيًا: أخذوا لقطات عقلية *took mental snapshots* (المترجم).

تعداد الرهبان

إن الأعداد المذكورة في تاريخ الرهبان تستوجب التعليق[٦]. لو جُمعت كل أعداد الرهبان والراهبات في هذا الجزء الصغير من العالم والذي زاره الفلسطينيون، لكان مجموعها أكثر من تعداد السكان الكليّ. ولم يعد كافيًا أن نستبعد هذه الأرقام بالمرّة على أنها وهمية وخيالية؛ فلقد تعلمنا درسًا في الحذر من المكتشفات الأثرية التي أثبتت بعض الادعاءات التي كان يتم استبعادها بسهولة. فلقد كانت [الرهبنة] طريقة شائعة في الحياة رغم كل شيء. ومن الممكن أن تكون هذه الأعداد قد شملت قديسي الدير المنتقلين. ومهما كانت تعني، فإن أعداد الرهبان تُقدَّم دائمًا كأعداد صحيحة: [أنبا] أور [هور ـ حور] كانت لديه "ربوات من التلاميذ وألف راهب"؛ [أنبا] أمون كان معه ثلاثة آلاف راهب؛ كان في البهنسا *Oxyrhynchus* عشرة آلاف راهب وعشرون ألف راهبة. كل هذا يمكن [تفسيره] بأنّه كان هناك الكثير من الرهبان والراهبات في الأماكن التي تمت زيارتها، بل إنّ بعض الأعداد قد تثير الشكوك إذا أُخذت بشكل حرفي: هل كان كل النساك العظام [الكبار] في العقد التاسع (من عمرهم) عندما وصل الزائرون؟ أم أنّ عمر التسعين كان ـ ببساطة ـ مؤشرًا على قرب هؤلاء الشيوخ من إكمال المائة؟

سكن الرهبان

إن الانطباع الأكثر وضوحًا الذي يخلّفه هذا التقرير عن الحياة الرهبانية في مصر لهو عن تنوع طرق الحياة هناك [في مصر] تنوعًا كبيرًا. فعلى سبيل المثال، كان الرهبان يسكنون بعدة طرق مختلفة: فقد كان [ق.] يوحنا الأسيوطي يعيش في قلاية من غرفتين[٧]، ونافذة يرى من خلالها زائريه يوميًا. لقد استقبلَ الفلسطينيين بنفسه وأكل وتحدث معهم في غرفة الضيوف لعدة

---

[6] Cf. Paul Devos, '*Les nombres dans l'Historia Monachorum in Aegypto*', Anal. Boll. 92 (1974) pp. 97-108.

[٧] مازال نظام السكن هذا متبعًا في الأديرة القبطية في وقتنا الحاضر، حيث تتكون قلاية الراهب من غرفتين: الخارجية لاستقبال ضيوفه، والداخلية – تُسمى المحبسة – لاستخدامه الخاص في الصلاة والقراءة والراحة. (المترجم).

أيام بعد وصولهم. ومع ذلك فقد عاشوا مع الرهبان الآخرين فيما يشبه قرية رهبانية صغيرة تبعد عدة أميال عن قلايته. وخلال الرحلة، تقابلوا مع نساك آخرين متوحدين سكنوا في الكهوف التي كانت منتشرة في المقاطعة؛ هناك صورة درامية عن الشيخ إيليا، جالسًا تحت صخرة بارزة، مرتجفًا [بسبب] سنه، وحيدًا في ''البريّة الرهيبة''؛ لقد كان هناك من قبل أن تعي ذاكرة أي من الرهبان الآخرين. وعلى ما يبدو، لم يكن لديه ما يقوله؛ لقد نظروا إليه وانصرفوا؛ فقد بدا لهم وكأنه أثر من عصر مضى.

إن الطريقة الأكثر ذيوعًا للرهبان في السكنى، كانت في قلالي صغيرة، يبنيها [الراهب] بنفسه من الطوب والملاط، [تتكون من] غرفة واحدة وربما اثنتين. هذه كان يمكن أن تُبنى في يوم واحد، و يعطينا ''تاريخ الرهبان'' *Historia Monachorum* مثلين لذلك. فعلى سبيل المثال، [أنبا] أور نظّم رهبانه عندما أتوا ليسكنوا بقربه:

> ''لقد جمع كل من كان يسكن بالقرب منه، وبنى لهم قلالي في يوم واحد، فواحد يسلّم الملاط، وآخر الطوب، آخر يجلب ماءً، وآخر يقطع الأخشاب. وعندما اكتملت القلالي، اهتم بنفسه باحتياجات الوافدين الجدد''

كان مثل هذا العمل الجماعي - على ما يبدو - هو العادة في نتريا، والكاتب يقدم تقريرًا مماثلاً عن بناء القلالي هناك. فعلى سبيل المثال، كان [أنبا] أمونيوس[٨] يدعو مجمع [الرهبان] في القلالي/كيليا *Cellia* عندما يصل أعضاء جدد، ''معطيًا الطوب لواحد، والماء لآخر، حيث يتم [بناء] القلالي الجديدة في يوم واحد''[٩]. بل قد قيل إن أمونيوس نفسه كانت له قلاية

---

[٨] كان [الأنبا] أمونيوس في القلالي / كيليا *Cellia*، على بعد حوالي اثني عشر ميلاً من نتريا *Nitria*.

[٩] يسمّي المعماري حسن فتحي – في كتابه ''عمارة الفقراء'' – هذا النظام في البناء بالنظام التعاوني. ومن ميزاته: تحويل عملية البناء إلى نشاط اجتماعي (مثل الحصاد وإطفاء الحرائق والزفاف، ... الخ)، كما أنه منخفض التكاليف، وأخيرًا فإن ''القرية التي يبنيها سكانها أنفسهم، ستكون كائنًا حيًّا قادرًا على النمو ومواصلة الحياة''. حسن فتحي، *''عمارة الفقراء''*، ترجمة د. مصطفى إبراهيم، مراجعة وإعداد م. عمرو رءوف – عن الإنترنت''.

جميلة، بها فناء وبئر، محققًا بها اكتفاءً ذاتيًا، وخصوصية. ويبدو أن قلالي النساك كانت تتكون من غرفتين، حجرة خارجية، وحجرة داخلية للنوم: إن المتوحدة التي زارها [ق.] باترموثيوس [درمتاوس] اللص، كانت [تتكوَّن] قلايتها من غرفتين، وموقعها قريب من كنيسة يشرف عليها الرهبان الذين كان بمقدورهم مراعاتها. كان ليوحنا الأسيوطي قلاية من غرفتين، ومبنية على غرفة أخرى لاستقبال الضيوف.

بجانب [وجود] هذه القلالي ذات الغرفتين، والمتجمعة بلا نظام مع بعضها، كانت هناك أيضًا أديرة، مبانٍ أكثر استقرارًا لمجموعات رهبان الإقليم. فقد زار السبعة ديرًا بُني على نموذج مجتمعات الشركة *Cenobitic Community* التي للقديس باخوميوس في طبانسين[١٠]، حيث كان هناك مبنى ضخم بسيط لسكن جميع الرهبان، [يحتوي] على قاعة طعام مشتركة وكنيسة. كان هناك أيضًا دير إيسيذوروس في الصعيد، والذي يبدو أنه كانت له وجهة نظر صارمة بخصوص حاجة الرهبان للبقاء داخل جدران الدير.

> "كان الدير محصنًا بجدران عالية من الطوب ... داخل الجدران توجد آبار وحدائق وكل ما كان ضروريًا لإمداد الرهبان باحتياجاتهم، فلم يخرج أحد منهم للخارج أبدًا. كان البوّاب شيخًا، ولم يكن يسمح لأي شخص بالخروج أو الدخول ما لم يكن يرغب في البقاء هناك لبقية عمره بدون مغادرة السياج أبدًا".

إن هذا يذهب أبعد من فكرة ضرورة تحصين الدير ضد هجمات البدو المتجولين[١١] ويؤكد على رغبة الرهبان في أن يبقوا هادئين [غير منزعجين]

جدير بالذكر أن هذا النظام التعاوني كان سائدًا في ريف مصر حتى عهد قريب؛ على الأقل حين كتب حسن فتحي كتابة في أربعينيات القرن الماضي. (المترجم).

[١٠] كان هناك ديران [لرهبان] طبانسين بالقرب من الأشمونين *Hermopolis Maga*، كان هذا أحدهما.

[١١] انظر: الدير الأبيض *monasterium candidum* بالقرب من أتريب، حيث كانت الحوائط بيضاء وله نفقان [يُستخدمان] فقط للدخول.

داخل جدران الدير. ويبدو أن دير إيسيذوروس كان هو المكان الوحيد الذي لم يُسمح فيه للزائرين بالحديث مع الرهبان في حرية. النموذج الآخر للمباني المستقرة كان في البهنسا[١٢]؛ مدينة من الصعيد ازدهرت في مصر المسيحية وكان لها أسقفها. لقد رآها المسافرون وكأنها مملوءة بالكامل بسكان من الرهبان والراهبات، الذين كانوا يعيشون في المعابد المهجورة، وتعاملوا مع المدينة كمؤسسة رهبانية عملاقة.

لقد كانت المباني الرهبانية التي رآها المسافرون السبعة من أبسط نوع. فقد كان الرهبان يبنون [مساكنهم] بالطوب المصنوع من الطين المجفف في الشمس، وما كان ضروريٌّ للبقاء حدّدَ كلَّ ما يلزم العمل [أي أنهم كانوا يبنون فقط ما هو ضروري للحياة].

إن التقيُّد بالضروريات هو جانب أساسي في حياة رهبان مصر. فلا يوجد لغز هنا بخصوص المباني المجردة البسيطة، ولكننا نجد فقرًا ضروريًّا أملاه الوقت والمواد المتاحان. بالمثل كان العمل اليدوي هو عمل الرهبان، لا بسبب أية نظرية عن الاحتياج لجدول متوازن، ولكن لأن من لا يعمل،لن يستطيع البقاء حيًا [لمدة] طويلة. لقد كان الرهبان معنيين بشكل مكثف باكتشاف تحرر [نقاوة] القلب الذي يمكّن الإنسان من معاينة الله،وكان هذا هو ما حدد تقشفهم. لقد بحثوا عن حدود الخبرة الإنسانية بكل وسيلة، بما في ذلك الأماكن التي اختاروها للعيش والملاجئ التي بنوها فيها. لقد كان الرهبان معنيين باختبار عظيم للطبيعة الإنسانية وعلاقتها بالله، وأعطاهم هذا هدفًا أبعد من التقشف ذاته. فمن جهة، كانت هناك القيود الصريحة التي تفرضها عليهم الحياة في الصحراء، ومن جهة أخرى، كان هناك الاستفادة التي اختاروا أن يخرجوا بها من [هذه الظروف].

[١٢] هذه المدينة موجودة الآن بنفس الاسم، وتتبع مركز بني مزار التابع لمحافظة المنيا بصعيد مصر. (المترجم)

الراهب والنوم / السهر

وفي مصر، لاحظ الزائرون نظام الرهبان في حياتهم اليومية، وعلّقوا على ممارساتهم بخصوص أساسيات الحياة، الطعام، النوم، والملبس. لقد رأوا بداية أن الرهبان نظّموا و ضبطوا الحاجة للنوم. يقول الكاتب في المقدمة إنهم: ''سهروا منتظرين المسيح مثل أبناء مخلصين ينتظرون أباهم''. بعض رهبان [الأنبا] أبوللو في باويط كانوا يظلون مستيقظين طوال الليل: ''لقد رأيتهم بعينيّ يبدأون ألحانهم في المساء ولا يتوقفون عن الترتيل حتى الصباح''. أنوف *Anouph* زعم أنه أحد الساهرين *sleepless ones*: ''أنا لم أنم نهارًا ولا توقفت عن طلب الله ليلاً''. يوحنا الراهب بدأ حياته النسكية بالوقوف تحت صخرة ''لمدة ثلاث سنين، في صلاة لا تنقطع، دون أن أجلس أبدًا أو أستلقي لأنام، ولكن ببساطة أختلس بعض النوم بينما أنا واقف''.رهبان نتريا أيضًا مارسوا هذا السهر الشديد، ويقول عنهم الكاتب: ''بعضهم لم ينم ليلاً أبدًا، ولكنهم جالسون أو واقفون ثابروا على الصلاة حتى الصباح''. إن هذا [أي السهر] مسلك إيجابي؛ فالرهبان لا يرفضون أن يناموا، ولكنهم ''يسهرون''؛ إنه التطبيق لمقولة [الأنبا] أرسانيوس المتقشفة: ''ساعة نوم واحدة ليلاً تكفي الراهب إذا كان مجاهدًا''.[١٣]

الراهب والطعام / الصوم

لقد تم إتباع نفس الاختبار ـ الخاص بحدود الحياة الطبيعية ـ فيما يخص الطعام، بأشكال مختلفة. هناك نماذج في ''تاريخ الرهبان'' *Historia Monachorum* عن الإفراط في الصوم: فعلى سبيل المثال، قيل عن الراهب يوحنا إنه بدأ [رهبنته] بالاستغناء عن الطعام مدة ثلاث سنوات ماعدا التناول في الآحاد. يجب أن تُقرأ هذه القصة بحذر بما أنها جزء من سلسلة من القصص الطويلة التي يقدمها كوبروس لزائريه لكي يظهر نسكياته الخاصة ضئيلة

[13] *Apophthegmata Patrum*, Alphabetical Series, ed. *PG* 65. English Translation Benedicta Ward, *The Saying of the Desert Fathers*, Arsenius 15, Mowbray, SLG press (1979)

إذا قيست بالآخرين؛ ومع ذلك، فهي مثيرة للاهتمام لأنها ـ حتى في هذا السياق ـ تظهر منطق البريّة في عدم تجاوز ما هو متاح للناس[١٤]: يوبّخ ملاك، يوحنا، لأجل صومه، ويقترح مداعبًا ـ وهو ما يشكّل سمة مميِّزة لهذه النصوص ـ أنه قد نال كفايته من طعام الصوم الغني: "يكفي هذا الطعام الروحي، وإلا تثقّلتْ معدتك وتقيأت". بعض الرهبان كانوا يأكلون القليل جدًا، مثل [ق.] يوحنا الأسيوطي الذي كان يتناول [ثمرة] صغيرة من الفاكهة يوميًا، وبيتيرون[١٥] *Pityron* كان [يأكل] غذاءً خفيفًا، القليل من حساء الذرة يوميًّا. كان العُرف في باويط حفظ صوم الأربعاء والجمعة القانونيين والامتناع التام عن الطعام، في ذكرى آلام المسيح، ولكن في باقي الأيام، كان المعتاد [أكل] وجبة عند المساء، عادة بعد التناول. قد يأكل الشيوخ أقل القليل بسبب السن، ولكن يبدو أن العادة التي لاحظها المسافرون هي ما أُشير إليها في [كتاب] أقوال آباء البريّة على أنها أمر معتاد في البريّة بعد أيام الاختبار الأولي:

> "سأل أنبا يوسف أنبا بيمن: 'كيف يجب أن يصوم [الراهب]؟' قال له أنبا بيمن: 'من جهتي، أعتقد أنه من الأفضل أن يأكل [الراهب] كل يوم، ولكن فقط القليل [من الطعام]، بحيث لا يرضى [يشبع]'. فقال له أنبا يوسف: 'حينما كنتَ [أنت] أحدث، ألم تكن تصوم يومين يومين يا أبي؟' فقال الشيخ: 'بلى، بل وحتى ثلاثة وأربعة والأسبوع بكامله. لقد جرّب الآباء كل هذه، وكانوا قادرين، ووجدوا أنه من الأفضل الأكل كل يوم، ولكن فقط كمية قليلة. لقد تركوا لنا هذا الطريق الملوكي، وهو النور'."[١٦].

---

[١٤] أي أن الآباء كانوا يعرفون أن للطبيعة البشرية احتياجات وحدود لا يمكن تجاوزها. (المترجم).

[١٥] ناسك، خلف القديس أمونيوس. انظر:
Aziz S. Atiya, *Coptic Encyclopedia*, vol. 7, (1991) p. 2086. (المترجم).

[16] Ibid. Poemen 31.

يبدو أن هذه العادة كانت قد أصبحت عامّة بحلول وقت مجيء [ق. يوحنا] كاسيان إلى مصر، وقد لاحظ الزائرون من فلسطين أن هذا هو الواقع. كانوا يُمنحون الطعام عندما يصلون أي مكان، ولكن الرهبان عادة ما كانوا يأكلون وجبة خفيفة عند الساعة التاسعة من النهار.

لم يكن تكرار الأكل مقيدًا فقط، ولكن نوع وكمية الطعام كذلك. فهنا أيضًا يوجد نفس المزيج من الحدود التي فرضتها طبيعة الحياة في البريّة واهتمام الرهبان الأساسي بالتحرر للتغذي على كلمة الله بدون الاضطراب بشهوة الطعام. إن جودة الطعام في البريّة لم تكن - بالضرورة - أفقر من [طعام] الفلاح المتوسط بشكل ملحوظ؛ في الواقع، ربما كانت أفضل. لقد ابتهج الرهبان بالمقارنة بين الطعام الراقي الذي كان يأكله [الأنبا] أرسانيوس في البلاط، والقوت الفقير الذي كان [يأكله] في البريّة؛ هناك قصة، تعددت رواياتها، [أظهرت] التناقض بين هذا [حال أنبا أرسانيوس] وخبرة فلاح متوسط صار راهبًا: "ماذا كان طعامك في الحقول؟ وأي خمر كنتَ تشرب؟" "كنتُ آكل خبزًا جافًا، وإن وُجدت أية أعشاب خضراء، وماءً"[١٧]. هذا هو تحديدًا النظام الغذائي الموصوف في "تاريخ الرهبان" *Historia Monachorum* عن النساك الذين تقابل معهم الزائرون أو سمعوا عنهم: خبزٌ جاف وعشبٌ أخضر. الخبز *paxamatia* [بقسماط]، كان يتكون من أرغفة صغيرة، وزنها حوالي اثنتي عشرة أوقية، والذي كان يمكن أخذه للبريّة وتخزينه إلى أجل غير مسمّى؛ لقد كان هذا هو نوع الخبز الذي وُجد بوفرة في باويط وقت المجاعة. وكان يُضاف للأرغفة الملح عند نقعها مجددًا لتصبح صالحة للأكل، وفقط النساك شديدو التقشف اعتبروا ذلك رفاهية[١٨]. قد يزرع الراهب حديقة صغيرة، ولكن أيّة خضروات تنمو هي للزائرين. ويبدو لنا من هذا الكتاب أن الخضروات كانت تُملَّح في محلول ملحي لحفظها للاستخدام مستقبلاً.

---

[17] Ibid. An Abba of Rome 1.

[18] Ibid. Achilles 3. Cf. Life of St. Anthony, 7: "كان طعامه الخبز والملح، ومشربه الماء فقط".

كان يُسمح ببعض الطهو في الأديرة، وفي نتريا رأى الزائرون خبزًا طازجًا. كان الرهبان الباخوميون يأكلون حساءً، وبعض الزيتون مع الخبز، وكذلك فعل تلاميذ هيللي *Helle*. إنّ التاجر الذي قدّم فولاً وعدسًا للرهبان عند تحوله [للرهبنة] لم تُرفض هديته، بينما قيل عن [أنبا] أبوللو أنه لم يأكل عدسًا، وكأن ذلك أمر غير عاديٍّ. لقد كان الماء هو المشروب المعتاد، وفي هذا الكتاب كان [الماء] هو كل ما قُدِّم للزائرين، مع أنه في مواضعٍ أخرى ذُكرت الخمر على أنها ليست ممنوعة.[١٩]

هواء البريّة الجاف، كمية الملح في الطعام، الماء القليل الملوحة، كل هذا انعكس في رؤى وتخيلات الرهبان. فما يحلمون به هو فاكهة طازجة، كثيرة العصارة، ومن خلال هذه الأحلام نحصل على ضوء واضح عن أصوام الرهبان. ما هي الكماليات عندهم؟ العنب، والذي قد يمر من يد إلى يد في عجب؛ التين [أيضًا]، وفي بعض الأحيان تين ضخم ظُنَّ أنه فاكهة حقيقية من الفردوس. [أنبا] أبوللو وتلاميذه الأُول أعطاهم ملاك هدية غريبة في أحد أعياد القيامة:

> ''أشياء لا تنمو في مصر: فاكهة من الفردوس من كل نوع، وعنب ورمّان وتين وجوز ... وشمع العسل وإبريق لبن طازج، وتمر عملاق، وأرغفة بيضاء مازالت دافئة.''

اللبن الطازج، والخبز الدافئ، وشمع العسل ـ المصدر الوحيد للسكّر في العالم القديم ـ وفوق كل ذلك، الفاكهة الطرية اللذيذة. عندما حلم كل من باترموثيوس [درمتاوس] و[ق.] مكاريوس بنفسيهما في الفردوس، كان أول ما فعلاه هو أن يأكلا، ويأكلا فاكهة، ''دسمة وكثيرة الألوان''؛ كانت هذه هي المكافأة الحقة.

الراهب والملبس

لقد ضبط الرهبان أنفسهم بخصوص النوم والطعام. وكذلك كانت ثيابهم أمرًا [يخضع] للانضباط النسكي. لقد تطلّع الزائرون ليروا كيف يتزيّا

[19] Ibid. Sisoes 8.

الرهبان، ووُصف هذا أكثر من مرة. تظهر تقاليد البريّة المبكرة النساك متجولين في أسمال أو أقمصة بسيطة. قيل عن [الأنبا] بولا السائح إنه نسج لنفسه قميصًا من ليف النخيل[٢٠]. في كتابنا هذا، قيل عن [ق.] مكاريوس إنه كان يرتدي أسمالاً، وهيللى *Helle* كان يرتدي "أسمالاً مملوءة رقعًا" حتى أنها حفّزت كاهنًا ليسخر منه برفق. ولكن عادة ارتداء زيٍّ [رهباني] مميز كانت قد ترسّخت ووُصفت تفاصيلها. كانت العادة [اقتناء] مجموعة واحدة من الثياب، وتُروى قصة عن راهب حاول الحصول على المزيد عن طريق إخفاء مجموعته الأولى. [الأنبا] أبوللو ورهبانه كانوا يرتدون أقمصة وأغطية رأس كتانية؛ رهبان الدير الباخومي كانت لهم جلود الخراف وأغطية رأس كتانية. وفي الكنيسة كان الرهبان يرتدون [ثيابًا] بيضًا، "مثل الخورس الملائكي". وفوق كل هذا يوجد وصف تفصيلي لزيٍّ رهباني، قال كوبروس إن باترموثيوس [درمتاوس] صنعه، فيصف لنا أنه أنعم على شاب أراد أن يصير له تلميذًا بقميص قصير الأكمام، وقلنسوة، ومعطف من جلد الخراف، وثوب كتاني حول الحقوين. هذا [الزي] مشابه للزي الرهباني الذي وصفه [ق.] يوحنا كاسيان بعد ذلك بعدة سنوات[٢١]: فهناك الكولوبيم *colobium* وهو قميص قصير الأكمام، وهو الثوب المألوف للعامل؛ القلنسوة، أو الكوكُلّوس *cucullus*، والتي كان يستخدمها [رهبان] طبانسين؛ المِلوتي *melote* أو المافورت *mafort*، جلد الغنم، وله استخدامات شتى، أغلبها عند الخروج كمعطف؛ ويذكر [كاسيان] أيضًا البلانيتا *planeta*، [أي] المنطقة لكي لا يعيق القميص العمل. وبينما لا يجب أن نستنبط الكثير من قصة كوبروس، فأنه يبدو أن الزائرين قد أُخبروا عن زيٍّ مميز للرهبان في مصر، على الرغم من أنه لم تُعطَ له دلالة خاصة حتى الآن.

---

[20] Jerome, *Vita S Pauli,* trans. Helen Waddell, *The Desert Fathers,* London, 1936, p. 52.
كان يلبسه [القديس] أنطونيوس الكبير في ذكرى المتوحد الآخر [الأنبا بولا].

[21] Institutes I, 5ff.

الراهب والعمل

عمل الرهبان كان بالضرورة زراعيًا في غالبيته. فقد كان هناك صراع يومي للبقاء [يخوضه] أولئك الذين اختاروا أن يحيوا بعيدًا عن الأراضي المستقرة بجوار النيل الخصب. كانوا يزرعون أعشابهم وخضرواتهم، وبعض المجموعات زرعت الذرة [الصنع] الخبز. على ما يبدو كان يتم تصدير بعض الذرة، والعمّال من الرهبان كانوا يُستخدمون في الحصاد، حيث كانوا يتلقون الأجر المعتاد للعامل، هذه الصورة أكدها [كتاب] أقوال آباء البريّة[٢٢]. زُرع أيضًا الكتان، وكانت لدير [ق.] سرابيون تجارة كتان وقمح مزدهرة مع الإسكندرية. كان كوبروس مهتمًا بالزراعة لنفسه، وللفلاحين المجاورين له، والعديد من الآباء جعلوا القفار تزهر بمجهوداتهم. كان هناك طلب لبعض الحرف الأخرى في البريّة، فيوحنا الناسك كان ينسج البرادع للحمير؛ أبلّس *Apelles* في مقاطعة طهنا [الجبل] *Achoris* ظل وهو راهب منكبًّا على عمله كحدّاد وصنع أدوات لاستخدام الرهبان. هناك إشارات قليلة للدراسة وعمل القراءة أو نسخ الكتب، هذا التجاهل [لعمل القراءة النساخة] لا يحمل - على الأرجح - أيّة دلالة خاصة. لقد تحدث إفاجريوس [أوغريس]، أكثر الرهبان علمًا، إلى الزائرين في نتريا، ومن الواضح إعجابهم به لعلمه؛ بل وأكثر من هذا، فهناك دلائل في مواضع أخرى من هذه المصادر عن التوقير الخاص لدراسة الكتاب المقدس. وحتى هنا، فإن معرفة الكتب المقدسة تُذكر على أنها "أعلى درجات النسك"، وذلك حينما استطاع باترموثيوس [درمتاوس] قراءة كتاب [سِفر] أُعطي له، على الرغم من كونه أميًّا معظم حياته.

الراهب والإفخارستيا / القداس

لقد رتل الرهبان، المزامير، باستمرار، إنّ هذا الأساس للصلاة والإنشاد هو أمر مفروغ منه بالنسبة للزائرين. ما هو مدهش في تقريرهم هو عدد المرات التي يذكرون فيها الاحتفال بالإفخارستيا والتناول. إن الانطباع الذي تخلّفه مصادر

---

[22] *Sayings of the Desert Fathers, op.cit.,* Benjamin 1, Isaiah 5, Pior 1.

أخرى هو أن القليل من رهبان مصر كانوا كهنة، والاحتفال اليومي بالإفخارستيا لم يكن مركزيًّا في طريقة حياتهم. بل حتى ترديد الصلوات في أوقات محددة يوميًّا، اعتبره بعض الآباء الأُول بدعة خطيرة[٢٣] والاحتفال اليومي بالإفخارستيا كان رفاهية لسكان المدن. على الرغم من ذلك نجد هنا أن كلا النساك [المتوحدين] والرهبان - سواء يحيون في جماعات أو في أديرة - يحتفلون بالإفخارستيا ويتقدمون للتناول كثيرًا. كوبروس، أولوجيوس، إيسيذوروس و بيامون *Piammonas* كانوا كلهم كهنة، ويبدأ [ق.] يوحنا الأسيوطي كلامه مع الزائرين بأن السيامة ليست شيئًا يُنكر. وفي كثير من الأحيان يصفون استقبالهم بأنه: تحية، وغسيل الأقدام، والإفخارستيا، ووجبة[٢٤]. النموذج المألوف في نتريا يوصف بالاجتماع *Synaxis* يومي السبت والأحد، يحضره جميع الإخوة: فالرهبان ''يأتون معًا للكنائس فقط في السبوت والآحاد ... ولا يرون بعضهم البعض إلا في الاجتماع *Synaxis* [القداس]''. يوحنا الناسك كان يتناول في كل أحد من يد الكاهن، حتى في أشد أيام نسكه، ومهما كان يكثر التجوال في البريّة، ففي كل أحد نجده يعود لأجل هذا العمل. عندما زار هيللي *Helle* أحد الأديرة، اندهش إذ لم يجد عندهم كاهنًا ليحتفلوا بالقداس *Synaxis* [يوم] الأحد، وللحال شرع يجلب واحدًا من قرية عبر النهر؛ ولم يكن خطؤه أن الكاهن تردد كثيرًا في استخدام وسيلة التنقل غير التقليدية التي وفّرها له هيللي *Helle*. بيامون *Piammonas* ومكاريوس وديوسقوروس وبيتيرون *Pityron*، كانوا ماهرين في كشف أفكار *attitude of mind* الآخرين عند تقدمهم للأسرار، وجعلوا هذا الأمر ذا أهمية مركزية، أي أن يتقدم [الراهب للتناول] فقط بذهن طاهر. ومع ذلك، ففي باويط، في دير [الأنبا] أبوللو توصف الإفخارستيا وصفًا

---

[23] Ibid. Epiphanius 3.

[٢٤] لاحظ أن هذه كانت التحية المعتادة للضيوف في مصر المسيحية، ومع ذلك، فإن إضافة الإفخارستيا محل الصلوات كان غير معتاد.انظر: *Historia Monachorum in Aegypto*, ed. A.J. Festugiere, Brussels (1961,1971), XIV بخصوص باترموثيوس [درمتاوس] ورئيس القرية.

كاملاً، حيث كانت لها مكانة مركزية. كان الاحتفال بالإفخارستيا [يتم] يوميًّا في دير [الأنبا] أبوللو، وقد أخبر زائريه بأنه:

> ''يجب أن يتناول الرهبان يوميًا، إن أمكن، من أسرار المسيح ... لذلك إنه مفيد للرهبان ... أن يستعدوا كل يوم، ويعدّوا أنفسهم بطريقة تؤهلهم لتناول الأسرار السمائية في أي وقت، لأننا بهذا ننال غفران خطايانا.''

هذه الصورة عن دير به خمسمائة راهب ومتوحد، يحتفلون يوميًّا بالليتورجيا القبطية، في الساعة التاسعة [من النهار]، وسهرة ليلية *night vigil*، لهي صورة غير معتادة في هذه المصادر: إن النموذج المتعارف عليه للرهبان المصريين هو ما وصفه كاسيان، حين يتقابل الرهبان يومي السبت والأحد ليتقدموا للتناول[٢٥]. هذه هي عادة نتريا كما يصفها ''تاريخ الرهبان'' *Historia Monachorum*. ويضيف روفينوس تفاصيل قليلة لصورة الاحتفال الإفخارستي في قصته عن الشياطين الذين أغووا الرهبان أثناء القداس: كان المذبح على مرأى من الجميع، ووقف الرهبان ليصلّوا، وكانوا يضربون الميطانيات، وتلقوا المناولة في أيديهم. من الممكن أن الزائرين الفلسطينيين كانوا انتقائيين فيما سجّلوه، وبما أنهم كثيرًا ما كان يُرحب بهم في الإفخارستيا عندما يزورون الرهبان، [لذا] فإن تقريرهم يعطي غلبة أكبر لها [أي مكانة الإفخارستيا] عما كان معتادًا؛ وربما كانوا مهتمين بأي عادة تتشابه مع عادات ديرهم. ولكن هذا مجرد تكهن، ويظل الواقع أن الزائرين الفلسطينيين سجلوا نشاطات ليتورجية أكثر من أي مصدر آخر عن الرهبان المصريين في القرن الرابع.

خاتمة

إن الحياة الرهبانية كما لاحظها الزائرون، تكمّل الصورة التي يمكن بناؤها من التاريخ اللوزي [اللوزياكي]، الأقوال، كاسيان، ومصادر أخرى.

---

[25] *Institutes* III 2; *Conferences* III.

كان الفلسطينيون متحمسين للملاحظة، واهتموا بالإنصات لكل ما قيل لهم، متقبلين ما يمكن أن يكون ديباجات عن كونه حقائق. على الرغم من ذلك فهم لا يقترحون على قارئيهم أن يحاكوا الممارسات النسكية المفرطة؛ إن الآيات والعجائب التي للرهبان لهي موضع إعجاب، ولكن ما يجب أن يُحاكى هو فضائلهم. إنّ الولوج للعالم الداخلي بغية الانفصال عن الذات، وتحرير القلب لله، هو شيء أساسي: "لتكن لك هذه علامة على تقدمك في الفضيلة، حين تكون لك السيادة على الأوجاع والشهوات. لأن هذه هي بدايات نعمة الله".